الخــوف من سـوء الخاتمـة

جمع وترتيب

محمود المصري
(أبو عمار)

مؤسسة قرطبة
ت: ٧٧٩٥٠٢٧

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

رقم الإيداع	٢٠٠١/٥٤٩٩

مؤسسة قرطبة
ت : ٧٧٩٥٠٢٧

الشركة الفنية للطباعة ت : 7771039 - 012/7739241

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه ﷺ . . أما بعد.

فبعد أن كتبت رسالة «الطريق إلى حُسن الخاتمة» رأيت أن من تمام الفائدة أن أكتب تلك الرسالة والتى هى بعنوان «الخوف من سوء الخاتمة» ليكتمل الموضوع وتتضح الصورة كاملة ويكتمل الخوف والرجاء فى قلب كل مؤمن ومؤمنة.

ولما كان الخوف من سوء الخاتمة هو السوط الذى يردع المؤمن عن الوقوع فى الذنوب والمعاصى كان لابد أن يسعى المؤمن للنجاة من سوء الخاتمة وذلك بأن يُخلص العمل لله ويجتهد فى طاعة الله ويُحسن الظن بالله ويعلم يقيناً أن الله لا يظلم مثقال ذرة . . . فلو عاش العبد على الطاعة مخلصاً لله (جل وعلا) فإن الله يختم له حياته على الطاعة ويثبته عند الموت وفى قبره فهو القائل (سبحانه وتعالى): ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ**

الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (ابراهيم: ٢٧).

وتالله إن مشاهد سوء الخاتمة التى كثرت فى زماننا هذا لتجعل المؤمن يخشى على نفسه أن يُختم له بسوء -عياذاً بالله- فهيا أيها الأخ الحبيب.. وهيا أيتها الأخت الفاضلة:

تعالوا بنا نبدأ من الآن صفحة جديدة مع الله (جل وعلا) نعاهده فيها على الطاعة ونبتعد عن معصيته ونُخلص النية لله ونُحسن الظن بالله (جل وعلا) عسى الله أن يختم لنا جميعاً بخاتمة أهل السعادة الذين يعيشون الحياة الحقيقية فى جنة الرحمن التى فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه
محمود المصرى
(أبو عمار)

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه

عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت.

قال: ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته، فليس شىء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحبَّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شىءٌ أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»[1].

قال الحافظ: قال ابن الأثير فى النهاية: المراد بلقاء الله هنا المصير إلى الدار الآخرة وطلب ما عند الله، وليس الغرض به الموت، لأن كلاً يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء الله، ومن آثرها وركن إليها كره لقاء الله لأنه إنما يصل إليه بالموت، . . . . . وقول عائشة -رضى الله عنها- والموت دون لقاء الله يبين أن الموت غير اللقاء، ولكنه معترض دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه ويحتمل مشاقه حتى يصل إلى الفوز باللقاء.

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٦٤-٣٦٥) الرقاق.

قال الطيبى: يريد أن قول عائشة إنا لنكره الموت يوهم أن المراد بلقاء الله فى الحديث الموت وليس كذلك، لأن لقاء الله غير الموت بدليل قوله فى الرواية الأخرى «والموت دون لقاء الله» لكن لما كان الموت وسيلة إلى لقاء الله عبر عنه بلقاء الله»[1].

إنما الأعمال بالخواتيم

عن سهل بن سعد أن النبى ﷺ التقى هو والمشركون، وفى أصحابه رجلٌ لا يدع شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «هو من أهل النار» فقال رجل من القوم: أنا أصاحبه فاتَّبعه، فجُرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموتَ، فوضع نصلَ سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، وقصَّ عليه القصة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة» زاد البخارى رواية :

(١) فتح البارى (١١/ ٣٧٦).

«إنما الأعمال بالخواتيم»[١].

الخواتيم ميراث السوابق

قال ابن رجب - رحمه الله-:

وفى الجملة فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق فى الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخاتمة، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقرّبين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا..

قال بعض السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق، وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركنى لا أفرح أبداً.

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكى ويقول: أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقياً، ويبكى ويقول: أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالك بن دينار يقوم طولَ ليِله قابضاً على لحيته ويقول: يارب قد علمتَ ساكن الجنة مَن ساكن النار، ففى أى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

الدارين منزل مالك؟ . . .

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر[١].

خوف السلف من سوء الخاتمة

* أبو بكر الصديق رضي الله عنه

عن البهى مولى مصعب بن الزبير قال: لما احتضر أبو بكر جاءت عائشة (رضى الله عنها) فتمثلت بهذا البيت:

لعمرُك ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا
حشرجتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق : ١٩)

انظروا ثوبَّى هذين، فاغسلوهما، وكفنونى فيهما، فإن الحى

(١) جامع العلوم والحكم/ لابن رجب الحنبلي (ص : ٥٠).

أحوج إلى الجديد من الميت»(١).

لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع

عن ابن عمر قال: كان رأس عمر فى حجرى فى مرضه الذى مات فيه، فقال لى: ضع خدى على الأرض.

فقلت: وما كان عليك كان فى حجرى أو على الأرض؟

فقال: ضعه لا أم لك. فوضعته، فقال: ويلى، وويل لأمى إن لم يرحمنى ربى(٢).

وفى رواية " لما طُعن عمر رضي الله عنه جاء ابن عباس فقال: ياأمير المؤمنين! أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، وقتلت شهيداً ولم يختلف عليك اثنان، وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنك راض، فقال له:

أعد علىّ مقالتك، فأعاد عليه فقال: المغرور مَن غررتموه، والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع(٣).

---

(١) الزهد للإمام أحمد (٢/ ١٤) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٩٧).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٥٢) - المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص : ٥٥).

(٣) وصايا العلماء (ص : ٣٨).

القبر أول منازل الآخرة

كان عثمان - رضى الله عنه- إذا وقف على قبر يبكى حتى يبلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه»[1].

وعن عبد الله بن الرومى، قال: «بلغنى أن عثمان- رضى الله عنه- قال: «لو أنى بين الجنة والنار، ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

والله لكأن القوم باتوا غافلين

وقال علىٌّ رضى اللّه عنه: واللّه لقد رأيت أصحاب محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصبحون شُعثاً غُبراً، بين أعينهم أمثال رُكب المعز، قد باتوا للّه سجّداً وقياماً، يتلون كتاب اللّه تعالى، يراوحون بين

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٤٦١).

جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عزَّ وجل، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهطلت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

أشتهى رحمة ربى

وهذا ابن مسعود (رضى الله عنه) الذى ملأ الدنيا فقهاً وعلماً يقول فى مرض الموت: «أشتهى رحمة ربى».

عن أبى ظبية قال: مرض عبد الله، فعاده عثمان، وقال: ما تشتكى؟

قال: ذُنوبى، قال: فما تشتهى؟ قال: رحمةَ ربى، قال: ألا آمر لك بطبيب؟

قال: الطبيبُ أمرضنى. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لى فيه[1].

أبكى على بُعد سفرى وقلة زادى

عن سلم بن بشير أن أبا هريرة بكى فى مرضه فقال: ما يُبكيك؟

---

(١) السير/ للإمام الذهبي (١/٤٩٨).

قال: مـا أبكى على دنياكم هذه، ولكن على بُعد سـفرى، وقلة زادى، وأنى أمـسيتُ فى صعُـود، ومهـبطُه على جنة أو نار، فلا أدرى أيهما يؤخذ بى[١].

فريق فى الجنة وفريق فى السعير

وكان عـمر بن عـبد العزيز إذا ذكـر الموت انتفض انتـفاض الطير، ويبكى حتى تجرى دموعـه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلمـا تجلت عنهم العَبْـرة قالت فاطمـة: بأبى أنت ياأميـر المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصـرف القوم من بين يدى الله تعالى، فريق فى الجنة، وفريق فى الـسعير. ثم صرخ وغُشى عليه.

وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون

ولما نزل الموت بسليمان التيمى قيل: أبشر فقد كنت مجتهداً فى طاعة الله تعـالى فقال: لا تقولوا هكذا، فـإنى لا أدرى ما يبدو لى من الله عز وجل فإنه سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ (الزمر:٤٧).

وقال أبو عبـيدة بن الجراح رضى الله عنه: وددت أنى كنت

---

(١) الزهد/ لابن المبارك (ص : ٣٨) والسير (٢/ ٥٧٨).

كبشاً فذبحنى أهلى، فأكلوا لحمى، وحسَوا مرقى.

وقال عمران بن حصين: ياليتنى كنت رماداً تذروه الرياح.

وقال حذيفة رضي اللّه عنه: وددت أن لي إنساناً يكون فى مالى، ثم أغلق علىَّ بابى، فلا يدخل علىَّ أحد حتى ألحق باللّه عزَّ وجل.

وكان مجرى الدمع فى خد ابن عباس رضى الله عنهما كالشراك البالى.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ياليتنى كنت نسياً منسياً.

قال هرم بن حيان: وددت واللّه أنى شجرة أكلتنى ناقة، ثم قذفتنى بعراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إنى أخاف الداهية الكبرى.

وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغيّر، فيُقال: مالَك؟ يقول: أتدرون بين يدى مَن أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر.

اللهم أقِل العثرة واغفر الزلة

ولّما حَضَرَت معاويةَ بنَ أبى سفيانَ الوفاةُ قال: أقعدونى، فأقعدوه، فجعل يذكر اللّه تعالى- ويسبحه ويقدسه. ثم قال

مـخاصـمـاً نفسـه: الآن تذكـر ربك يامعـاوية بعـد الانحطام والانهدام، ألا كـان ذلك وغصنُ الشـباب نضيـرٌ ريان، وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال:

هو الموت لا منجى من الموت والذى
أحاذر منه الموت أدهى وأفظع

ثم قـال: يارب ارحم الشـيخ العـاصىَ ذا القلب القـاسى، اللهم أقلِ العثرةَ، واغفر الزلّةَ، وجُدْ بحلمك على من لم يرجُ غيرَك ولا وثق بأحد سواك.

اللهم لا برىء فأعتذر ولا قوى فأنتصر

ويروى أن عمـرو بنَ العاص -رضى الله عنه- لَمـا دنا منه الموتُ دعا بحـراسه ورجـاله فلمّا دخلوا عليه قـال: هل تغنون عنى من الله شيئاً؟ قالوا: لا، قـال: فاذهبوا وتفرقوا عنى، ثم دعا بماء فتوضأ فأسـبغ الوضوء ثم قال: احملونى إلى المسجد، ففعلوا.

فقال: اللهم إنك أمرتنى فعصيتُ واتتمنتَنى فخنتُ وحددتَ لى فتـعديتُ، اللهم لا برىءُ فأعـتذر، ولا قوىٌ فأنتـصر، بل مذنبٌ مستغفر، لا مُصرٌ ولا مستكبر[1].

---

(١) اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات/ الشيخ عبد العزيز السلمان (ص : ١٤٤)

شيء يفوق الخيال

أخي الحبيب: هل تصدق أن هناك من سمع أصوات المعذَّبين والمنعَّمين في قبورهم ؟!!!

قال ابن رجب - رحمه الله - في أهوال القبور:

وقد أطلع الله من شاء من عباده على كثير مما ورد في هذه الأحاديث حتى سمعوه وشاهدوه عياناً. ونحن نذكر بعض ما بلغنا من ذلك: عن عبد الله بن عبيد الأنصاري قال: كنت ممن دفن ثابت بن قيس بن شماس -رضي الله عنه- وكان أصيب يوم اليمامة، فلما أدخلناه القبر سمعناه يقول: «محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان الرحيم، فنظرنا فإذا هو ميت».

ومن طريق العلاء بن عبد الكريم قال: مات رجل، وكان له أخ ضعيف البصر، قال أخوه: فدفناه، فلما انصرف الناس، وضعت رأسي على القبر، فإذا أنا بصوت من داخل القبر يقول: «من ربك؟ ومن نبيك؟ فسمعت صوت أخي وهو يقول: الله (ربي، ومحمد ﷺ نبيي)، قال الآخر: فما دينك؟ قال: الإسلام».

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «المحتضرين» بإسناده عن أبي غالب صاحب أبي أمامة: أن فتى بالشام حضره الموت، فقال

لعمه: «أرأيت لو أن اللّه دفعني إلى والدتى ما كانت صانعة بى؟» قال: «إذًا والله تدخلك الجنة». فقال: «والله لله أرحم بى من والدتى»، فقُبض الفتى، فجزع عليه عبدالملك بن مروان قال: فدخلت القبر مع عمه فخطوا له خطا، ولم يلحدوه، قال: فقلنا باللبن[١] فسوينا عليه، فسقطت منها لبنة، فوثب عمه، فتأخر، قلت: «ما شأنك؟» قال: «ملىء قبره نوراً، وفسح له مد البصر»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه: قد سمع غير واحد أصوات المعذبين فى قبورهم، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو يعذب[٣].

وقال أيضاً: قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومناماً، ويعلمون ذلك ويتحققونه، وعندنا من ذلك أمور كثيرة[٤].

وقال: وقد انكشفت لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا أصوات المعذبين فى قبورهم، ورأوهم بعيونهم يعذبون فى قبورهم، فى آثار كثيرة معروفة[٥].

---

(١) اللبن : الطوب غير المحروق.
(٢) أهوال القبور/ لابن رجب الحنبلي (٣٨ : ٤٠) بتصرف.
(٣) مجموع الفتاوي (٥/ ٢٥٦).
(٤) مجموع الفتاوي (٢٤/ ٣٧٦).
(٥) مجموع الفتاوي (٤/ ٢٩٦).

وقال ابن القيم رحمه الله: رؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانا لمن شاء الله أن يريه ذلك[١].

علامات سوء الخاتمة

إن علامات سوء الخاتمة كثيرة جداً ومنها على سبيل المثال :

التسخط والاعتراض على قضاء الله.. الأمن من مكر الله.. النفاق والرياء وحُب السمعة.. الغفلة عن ذكر الله (عز وجل).. إلى آخر تلك العلامات فمنها علامات تكون قبل الدفن ومنها ما يكون عند الدفن ومنها ما يكون بعد الدفن.

❊ علامات سوء الخاتمة قبل الموت

فبعضهم عند موته يتلفظ بكلمات تُغضب الله (عز وجل) وذلك بأن يعترض على قضاء الله أو يُحال بينه وبين كلمة التوحيد أو ينطق بكلمة الكفر قبل الموت -فنعوذ بالله من الخُذلان-.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلى -رحمه الله-:

(قال عبدالعزيز بنُ أبى روَّاد: حضرْتُ رجلاً عند الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا الله، فقال فى آخر ما قال: هو كافر

(١) الروح/ لابن القيم (ص : ٩٣).

بما تقول، ومـات على ذلك. قال فـسألتُ عنه فـإذا هو مدمنُ خمـر. وكان عبدالعزيز يقـول: اتقوا الذنوب فإنـها هى التى أوقعته)[١].

ومنذُ سنوات جَرَتْ حادثةٌ فى القـصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلُها أنَّ رجلاً فى حال احتضاره ظهر عليه من الاعتـراض على ربه ما ظهـر، فجـاء بعض أصحـابه ممن كان يصلى مـعه فى المسـجد - والله أعلم بما فى القلـوب- وقال: ياعبـد الله، هذا المصحفُ الذى كنت تقـرأ فيه، فـاتق الله فى نفسكَ، ولقنه كلمة التوحيـد، فقال: هو كافر بالمصحف، وبـ لا إله إلا الله، وخُـتِمَ لـه على ذلك الحـال[٢]، فنعـوذُ بالله -تعالى- من الخذلان.

ومنهم من كـان فى سكرات الموت فيقـولون له: قل لا إله إلا الله فيقول: هل رأى الحُب سُكارى

ومنهم من قال عند موته: إن ربى ظلمنى

قال ابن القـيم -رحمـه الله-: والحكايات فى هذه كثـيرة جداً، فمن كـان مشغولاً بالله وبذكـره ومحبته فى حـال حياته

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص : ٥٠).

(٢) من محاضرة للشيخ عبد الرحيم الطحان بعنوان/ الخوف من سوء الخاتمة.

وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت، وما لم يدركه عناية ربه، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان، لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته[1].

علامات سوء الخاتمة عند التغسيل

يقول الشيخ القحطاني في محاضرة له: إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلب بشرته إلى السواد وبعضهم يقبض يده اليمنى وبعضهم يُدخل يده في فرجه وبعضهم تشم رائحة الشواء من فرجه وبعضهم تسمع كأن أسياخاً من نار أُدخلت في فرجه. يقول: ولقد جيء بميت فلما ابتدأنا بتغسيله انقلب لونه كأنه فحمة سوداء وكان قبل ذلك أبيض البشرة، فخرجت من مكان التغسيل وأنا خائف فوجدت رجلاً واقفاً فقلت له: هذا الميت لكم؟ قال: نعم. قلت: أنت أبوه؟ قال: نعم، قلت: ما شأن الرجل؟ قال: هذا الرجل كان

---

(١) طريق الهجرتين (ص : ٣٠٨ : ٣٠٩).

لا يصلى فقلت له خذ ميتك فغسّله[١].

قال فى «تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان»: ولقد حدثنى عدد ممن يغسلون الموتى من مناطق مختلفة، عن بعض ما شاهدوه أثناء التغسيل من هذه العلامات، والغريب فى الأمر أنهم يتفقون على صفات معينة، يرونها على هؤلاء الموتى، وأكثر هذه الحوادث متشابهة، من ذلك أن الرجل الذى يموت على الخير يبدو وكأنه نائم وأما من مات على خلاف ذلك فيظهر عليه الفزع وخوف الموت، مع تغير فى وجهه، ولقد غسلت وشاركت فى التغسيل ورأيت بعض ذلك والحمد لله.

حدثنى أحدهم فقال: غسلت رجلاً، وكان لونه مصفراً، وفى أثناء التغسيل أخذ لونه يتغير إلى السواد من رأسه إلى وسطه فلما انتهيت من التغسيل فإذا به قد أصبح كالفحمة السوداء.

قال: وميت آخر كان وجهه أثناء التغسيل متوجهاً نحو كتفه الأيسر، فلما أرجعته نحو الكتف الأيمن عاد إلى الجهة اليسرى، حتى لما وضعته فى قبره ووجهته نحو القبلة انصرف وجهه عنها إلى أعلى.

(١) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان (ص: ٤٧).

وحدثنى مغسلٌ آخر أنه غسل رجلاً وكان لونه مصفرًا، فلما فرغوا من التغسيل اسود وجه ذلك الرجل فقلت له: أسود مثل لحيتى؟ قال: أسود كالفحم، قال: ثم صار يخرج من عينيه دم أحمر وكأنه يبكى الدم والعياذ بالله.

وحدثنى مغسل آخر فقال: دخلت ذات مرة على بعض الإخوان وهم يغسلون ميتًا فرأيت وجهه مسودًا كأنه قرص محترق، وجسمه أصفر ومنظره مخيفاً، ثم جاء بعض أهله لينظروا إليه فلما رأوه على تلك الصورة فروا هاربين خوفًا منه[1].

علامات سوء الخاتمة عند الدفن

وقال الشيخ القحطانى: خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر، وكنا قد قبرنا رجلاً وكان الطين عالقاً فى يدى، فأردت أن أغسلها، إذ جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا فى حدود الخمسين رجلاً: بالله عليك أن تساعدنا فى دفن هذا الرجل، فوالله لا نُحسن الدفن فسلك الرجل من جهة الرجلين وكان ثقيلاً، فأعاننى عليه بعضهم فوضعته فى القبر وطلبت لبنةً أضعها تحت رأسه وقد حللت الأربطة فنظرت فإذا برأس

(١) «تذكرة الإخوان» باختصار (ص : ٤٧-٤٨).

هذا الميت قد تحوّل - عياذاً بالله- من القبلة هكذا فحوَّل الشيخ رأسه، فقـمت بردّ هذا الميت إلى القبلة وأخذت اللبنة الـثانية ولكنى فى هذه المرة وجدت عينيه قد فُتحـتا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القانى فداخلنى الخوف والوجل حتى إن رجلى لم تستطعـا أن تحملانى داخل القبر، وقـد رأى معى اثنان أو ثلاثة هذا المشهد الغـريب الخطير ثم أعطونى اللبنة الثالثـة، فوجدت أنه تحول فى المرة الثـالثة فتركتـه وهربت من القبر نهائيـاً، فقام الذين كانوا معى وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب ولم يغلقوا اللحد من شـد الخوف ثم صرت أرى هذا المـيت فى المنام سبع أو ثمانى مرات حتى سكّن الله قلـبى عندما ذهبت إلى العمرة وجلست هناك فى حدود خمسة عـشر يوماً حتى نسيت وعدت إلى الرياض[1].

قال فى «تـذكرة الإخوان»: وأمـا ما ظهـر عند الإنزال فى القبر والعـياد بالله فحدثنـى أحد المغسلين فقـال: غسلت عدداً كبيراً من الموتى لسنين طويلة، وأذكر أنى وجهت أكثر من مائة ميت كلهم صرفت وجوههم عن القبلة.

---

(١) المرجع السابق (ص : ٤٨-٤٩).

وحدثني مغسل آخر قال :

عندما وضـعت أحد الموتى فى قبـره ووجهته نحـو القبلة، رأيت وجهـه قد تحول إلى أسفل، ودخل أنفـه فى التراب، ثم وجهته إلى القبلة ووضعت تحت رأسه تراباً، ولكنه عاد وأدخل أنفه فى التـراب، ثم وضعت رملاً أكثـر فى هذه المرة حتى لا يعود ولكنـه عاد وأدخل أنفه فى التـراب، ولم أزل معـه حتى تكرر الأمر خمس مرات فلما يئست منه تركته وأغلقت القبر.

قال أحد الفـضلاء: كنا فى رحلة دعوية إلى الأردن، وفى ذات يوم وقد صلينا الجمعة فى أحد مساجد مدينة الزرقاء وكان معنا بعض طلبة العلم وعالم من الكويت، وبينما نحن جلوس فى المسجد وقد انصـرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غـير طبيـعى وهم يصيـحون أين الشيخ، أيـن الشيخ؟ وجاءوا إلى الشيخ الكويتى فقالوا له: ياشيخ عندنا شاب توفى صبـاح هذا اليوم عن طريق حادث مـرورى وإننا عندما حـفرنا قبره إذا بنا نفاجأ بوجـود ثعبان عظيم فى القبر، ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف؟

يقول الراوى: فـقام الشيخ وقـمنا معه وذهبنا إلى المقـبرة، ونظرنا فى القبر فوجـدنا فيه ثعباناً عظيمـاً قد التوى: رأسه فى الداخل وذنبه فى الخارج، وعينه بارزة يطالع الناس.

قال الراوى: فقال الشيخ: دعوه واحفروا له مكاناً آخر.

يقول فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتى متر تقريباً، فحفرنا وبينما نحن فى نهايته إذا بالثعبان يخرج. فقال الشيخ: انظروا القبر الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثاً ورابعاً سيخرج الثعبان فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه.

يقول الراوى: فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا وخرج من القبر وجلس على شفيره والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناس ذعرٌ وخوف، حتى إن بعضهم حصل له إغماء فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت.

يقول الراوى: وبينما جيء بالجنازة وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار، ثم دخل من أسفل القبر فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت وبدأ من رجليه حتى وصل رأسه، ثم اشتد عليه فحطمه: يقول الراوى: إنا كنا نسمع تحطيم عظامه

كما تحطم حزمة الكراث.

يقول الراوى: ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر، وإذا الحال كما هو عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت وما استطعنا أن نفعل شيئاً.

وقال الشيخ: اردموه، فدفناه ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال: إنه كان طيباً مطيعاً إلا أنه لا يصلى، نعوذ بالله من سوء الختام[١].

علامات سوء الخاتمة بعد الدفن

كان هناك رجل يعمل نباشاً للقبور فلما تاب إلى الله سأله أحد العلماء ما السر فى توبتك؟!!! فقال له الرجل: لقد كنت أنبش قبور المسلمين بعد دفنهم لأسرق الأكفان والأسنان الذهبية وغير ذلك فنبشت ألف قبر فما وجدت واحداً منهم موجهاً للقبلة مع أن أقاربه دفنوه منذ ساعات وتركوه موجَّهاً للقبلة!!! فقلت فى نفسى ما الذى حوَّلهم عن القبلة؟ فعلمت أن ما فعلوه فى الدنيا ظهر فى قبورهم فعزمت على أن أتوب قبل أن يأتينى ملك الموت وأنا على تلك الحالة.

---

(١) رسالة عاجلة إلى المسلمين/ (ص: ٤٦-٥٠).

نعم يا إخواني: ما فعلوه هنا ظهر هناك.. وما أدراك ما هناك !!!.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان منا رجلٌ من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب لرسول الله ﷺ فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب، قال: فرفعوه، قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد ﷺ.

فأعجبوا به فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم، فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذاً[(١)].

أسباب سوء الخاتمة

وهي أسباب كثيرة وسنكتفي بذكر أهم تلك الأسباب:

(١) الشك والجحود والتعبُّد بالبدع

ومعناها: أن يعتقد في ذات الله -تعالى- أو صفاته أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشَفَ

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٦٢٤) الأنبياء.

الغطاء عند الموت بان له بطلانُ مـا اعتقـده فظن أن جمـيع ما اعتقده لا أصل له.

وكم خُتِمَ لكثيـرٍ من البشر بهذا عندمـا ابتدعوا فى دين الله -عز وجل- وزاغوا وانحرفوا عن صراط الله المستقيم، وظهرت حقيقتُهم فى أولِ لقاءٍ لهم مع ربٍّ العالمين سبحانه.

هذا ابنُ الفارض عـمرُ بنُ عليٍّ الحمـويُّ (المتوفيًّ سنة ٦٣٢ هـ) والذى كان ينعقُ بالاتحاد، ويقول بحلول الله -جل وعلا- فى مخلوقاته، وأن العبدَ رب والربَّ عبـدٌ، عندما احُتضرَ كما قال الأئمة الثقات الذين شاهدوه فى حالة الاحتضار نَظَمَ بيتين من الشعر وهو فى تلك الحالة يعبرُ فيها عن شقوته وعن هلاكه ويبكى ويقول :

إنْ كان منزلتى فى الحبٍّ عندكم
ما قد رأيت فقد ضيعتُ أيامى
أمنيةٌ ظفرت نفسى بها زمناً
واليوم أحسبها أضغاثَ أحلامى[1]

وقال ذلك عندما عاين سـخط الله -جل وعلا- وكُشِفَ له

(١) من محاضرة للشيخ/ عبد الرحيم الطحان - بعنوان «الخوف من سوء الخاتمة».

عن حقيقة أمره، وقَلَّ أن يُخْتَم لمبتدع فى دين الله -تعالى- بالإيمان، ونسأل الله السلامةَ والعافية.

(٢) تسويف التوبة

أخى الحبيب.. أختى الفاضلة: إن من أهم أسباب سوء الخاتمة- تسويف التوبة- فلا يزال العبد غارقاً فى الشهوات والشبهات وهو يؤجل التوبة يوماً بعد يوم حتى يأتيه ملك الموت فجأة فيصرخ هذا العبد ويندم على عمره الذى مضى فى معصية الله ويقول: ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾ فيقال له: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠)

فيالها من حسرة تجعل القلوب تبكى الدماء بدل الدموع.

قال تعالى: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ**

لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

(الزمر: ٥٤-٦٠)

وصدق من قال:

العمر ينقص والذنوب تزيد
وتقال عثرات الفتى فيعود

هل يستطيع جحود ذنب واحد
رجل جوارحه عليه شهودُ

والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي
تقليلها وعن الممات يحيدُ

فأقبل على الله يا أخى ولا تيأس من رحمة الله فرحمته وسعت كل شيء.. وذنبك مهما عظم فهو شيء وسوف تسعه رحمة الله (جل وعلا)... وإياك وتسويف التوبة لكى لا تندم حين لا ينفع الندم فكم من أناسٍ هلكوا بسبب (سوف) إلى أن

جاءهم ملك الموت وهم غارقون فى الذنوب والمعاصى.

قال تعـالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون: ١٠-١١).

قال ابن كـثير: «كل مفـرّط يندم عند الاحتضـار، ويسأل طول المدة ولو شـيئاً يسـيراً، ليـستـعتب ويسـتدرك مـا فاته، وهيـهـات، كـان مـا كـان، وأتى مـا هو آت، وكل بحـسب تفريطه»(١).

قال الحـسن البـصرى -رحمـه الله-: «هيـهات هيـهات، أهلك الناس الأمـانى، قول بلا عمل، ومـعرفة بـغير صـبر، وإيمان بلا يقين».

«البدار البدار قبل الفوات، الحذار الحذار من يوم الغفلات، قبل أن يقول المذنب: (رَبِّ ارْجِعُونِ)؛ فيقال: فات»(٢).

كلنـــا في غفـــلة والمـــوت يغـــدو ويـــروح

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٣).

(٢) التبصرة/ لابن الجوزي (١/ ١٧٧).

نـــُح على نفســـك يا مسـكينُ إن كنـــت تنـــوحُ

(٣) عدم الاستقامة على الطاعة

قال تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾
(ابراهيم: ٢٧)

فأهل الاستقامة على الطاعة هم الذين يثبتهم الله (جل وعلا) في الدنيا والآخرة وهم الذين تتنزل عليهم الملائكة عند الموت لتبشرهم بالجنة.. قال تعالى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾
(فصلت: ٣٠-٣٢)

أما الذين تتقاذفهم أمواج الفتنة والشهوات فهؤلاء الذين تُختم لهم بسوء الخاتمة

قيـل لأحد علمـاء سلفنا: فلان عـرف طريق الله ثم رجع عنه، فقال: «لو وصلوا إليه ما رجعوا».

فمن عـرف طريق الملك، ثم أعـرض عنه وتنكّبه، واخـتار طرق الغواية والضلال، وآثر الغيّ على الرشاد، والضلالة على الهُدى، والفجور على التقى، كان ذلك من أعظم أسباب سوء الخاتمة.

وقد ورد عند مسلم وأحـمد وغيرهما من حـديث عبد الله بن سرجس قال: كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من وعـثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب المنقلب، والحور بعد الكور».

قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (الصف : ٥).

وقال عبد الحق الإشبيلي رحمه الله:ـ ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسـجداً للأذان والصـلاة وعليه بهـاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يومـاً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فتـرك الأذان، ونزل إليهـا، ودخل الدار عليـها، فقـالت له: ماشأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك قالت: لماذا؟ قال: لقد سبيت لُبي، وأخذت بمجامع قلبي؟ قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبداً.

قال: أتزوجك؟ قالت: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبى لا يزوجنى منك. قال: أتنصر؟ قالت: إن فعلت أفعل، فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم فى الدار، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم، رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه[1].

ويروى طاوس بن كيسان رحمه الله- فيقول :

كان رجل من بنى إسرائيل، وكان عابداً، وكان ربما داوى المجانين، وكانت امرأة جميلة أخذها الجنون، فجىء بها إليه فتركت عنده، فأعجبته، فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال:ـ إن عُلم بهذا افتضحت فاقتلها، وادفنها فى بيتك، فقتلها ودفنها فى بيته، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها. فقال : ماتت، فلم يتهموه لصلاحه فيهم ورضاه، فجاءهم الشيطان فقال: إنها لم تمت، ولكنه وقع عليها، فحملت فقتلها ودفنها، وهى فى بيته فى مكان كذا وكذا، فجاء أهلها، فقالوا: ما نتهمك، ولكن أخبرنا أين دفنتها؟ ومن كان معك؟

ففتشوا بيته، فوجدوها حيث دفنها، فأخذ فسُجن فجاء

---

(١) الداء والدواء/ (ص : ١٧٠).

الشيطان فقال: إن كنت تريد أن أخلصك مما أنت فيه وتخرج منه، فاكفر بالله، ... فأطاع الشيطان وكفر فأُخذ فقتل، فتبرأ منه الشيطان حينئذ.

قال طاووس: فما أعلم إلا أن هذه الآية أنزلت فيه[1] ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر :١٦).

(٤) طول الأمل

أخى الحبيب.. أختى الفاضلة :

جميل أن نحمل فى قلوبنا أملاً، لكى نعمرِّ الكون بكل أنواع الخير، فالإنسان مفطور على حُب الحياة.. لكن لابد أن نحذر من أن يحول طول الأمل بيننا وبين طاعة الله عز وجل.

فإن صاحب الأمل الطويل فى الدنيا يركن غالباً إلى الشهوات والملذات، ولذلك نجد قلبه لا يتحرك لآيات الله وكلام رسول الله ﷺ. ومن أجل ذلك حذَّر النبى ﷺ من

(١) خبر صحيح إلى طاوس. أخرجه عبد الرزاق (٣١٩٤) في تفسيره، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٦/ ٢٠٠).

طول الأمل.

فعن ابن عمر - رضى الله عنهما- قال: أخذ رسول ﷺ بمنكبي فقال «كُن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر -رضى الله عنهما- يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك .. زاد أحمد والترمذى: «وعدَّ نفسك من أهل القبور»[1].

ولقد قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ (الحجر: ٣).

قال الإمام القرطبى: وطول الأمل داء عُضال ومرض مزمن ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.. ولذا قال رسول الله ﷺ:

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر- صحيح الجامع (٤٥٧٩).

«صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»[1].

ويُروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: ياأهل دمشق، ألا تسمعون من أخٍ لكم ناصح؟! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بُوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً. فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

ياذا المؤمل آمالاً وإن بَعُدت منه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنَّى تفوز بما ترجوه ويْكَ وما أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها.

* وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل، وصدق رضى الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قصر الأمل

(١) رواه أحمد في الزهد والطبراني في الكبير والبيهقي عن ابن عمرو، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٤٥).

يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة[١].

وقال عليّ – رضى الله عنه –: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة.

وجاء فى الأثر : أربعة من الشقاء : جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا[٢].

وطول الأمل له سببان :

أحدهما: الجهل: فيظن الشاب أن الموت بعيدٌ عنه لأنه مازال فى ريعان شبابه وصحته وعافيته.. وما علم هذا الشاب أن الموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً.

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٠/٧-٨) ط. دار الحديث.
(٢) أخناه إنما أنت أيام/ للمصنف (ص : ٥٣-٥٦).

وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إلىَّ كأنه يريدنى قال: فماذا تريد؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند! ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى قال: نعم كنت أتعجب منه لأنى كنت أُمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك[1]!

تزود من الدنيا فإنك لا تدرى
إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجرِ
فكم من فتى يمسى ويصبح لاهيا
وقد نُسجت أكفانه وهو يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدرِ
وكم من صغار يُرتجى طول عمرهم
وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبرِ

---

(١) إحياء علوم الدين/ للإمام الغزالي (٥/ ١٤٩).

وكم من صحيح مات من غير علة
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهرِ

أما السبب الثانى لطول الأمل: فهو حُب الدنيا. . وسنجعل هذا السبب مستقلاً لأهميته.

(٥) حب الدنيا

أما حب الدنيا فـإن الإنسان إذا أنس بها وبشهـواتها ولذاتها وعلائقهـا، ثقل على قلبه مفارقـتها فامـتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفـارقتها، وكل من كره شيـئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمـانى الباطلة، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا.

وأصل هذه الأمانى كلها، حبُّ الدنيـا والأنس بها، والغفلة عن قول النبى ﷺ: «أحبب ما شئت فإنك مفارقه»[(١)].

❋ قال ابن عباس (رضى الله عنهما) :

«يؤتى بالدنيا يوم القـيامة فى صورة عجـوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية ومشّوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال لهم:

(١) رواه الشيرازي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣).

أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه الدنيا التى تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يُقذف بها فى جهنم فتنادى: أى رب أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها».

قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان مَن سكِر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين.

ومحب الدنيا أشدّ الناس عذاباً بها، وهو معذب فى دوره الثلاثة يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها، وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً، ويعذب يوم لقاء ربه ... قال تعالى: ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ (التوبة : ٥٥).

قال القرطبى : ومثل هذا فى النّاس كثير ممن غلب عليه الاشتغال بالدنيا والهمّ بها، أو سبب من أسبابها، حتى لقد حكى لنا أن بعض السماسرة جاءه الموت فقيل له: قل: لا إله

إلا الله فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف ... غلبت عليه «حب» السمسرة.

ولقد رأيت بعض الحُسَّاب وهو فى غاية المرض، يعقد بأصابعه ويحسب ... وقيل لآخر قل: لا إله إلا الله فجعل يقول : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلانية اعملوا فيها كذا.

قال ابن القيم: وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول: للَّهِ، فلس للَّهِ، حتى قضى.

وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده وجعلوا يلقنوه «لا إله إلا اللّه» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيدٌ هذا كذا حتى قضى!

وسبحان اللّه كم شاهد الناس من هذا عبراً؟ والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم[1].

وقال لقمان لابنه: يابنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً.. وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن

(١) الداء والدواء/ (ص : ١٤٣).

انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

(٦) صُحبة الأشرار

قال ﷺ «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[١].

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «أنت مع من أحببت» فالصاحب ساحب. إما أن يأخذ بيديك إلى مرضاة الله وإما أن يأخذ بيديك إلى معصية الله (جل وعلا) وكم من أُناسٍ عاشوا على طاعة الله فلما اختلطوا بالعصاة والأشرار فإذا بهم ينتكسون على أعقابهم وينغمسون فى الذنوب والمعاصى ويموتون على ذلك.. بل ومنهم من يموت على الكفر بعد الإيمان.. ومنهم من يُحال بينه وبين الإيمان بسبب مصاحبة الأشرار.

(١) رواه الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٥).

* وها هو عـقبـة بن أبى مـعيط الذى مـات على الكفـر بسبب صحبة السوء - فقـد رُوى أن عقبة كان صديقا لأبى بن خلف فصنع عقبة وليمة فدعا إليها قريشاً ودعا رسول الله ﷺ فلما قدم الطعـام قال رسول الله ﷺ ما أنا بآكل طعامك حتى تشهـد أنى رسول الله ففعل فـأكل رسول الله من طعامـه فلما بلغ (أبى بن خلف) ذلك قال لصديقه عقـبه : صبأت؟ قال لا ولكن دخل علىّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعـامى حتى أشهد له بالرسالة . . فقال له (أبى بن خلف) وجهى من وجهك حرام إن رأيت محمـداً حتى تبزق فى وجهه وتطـأ على عنقه وتقول كيت ... وكيت فـفعل عدو الله ما أمـره به خليله فأنــزل الله ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾ (الفرقان: ٢٧-٢٩)[١].

يقول ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق

---

(١) التفسير الكبير/ (٢٤/ ٧٥).

طريق الرسول وسلك سبيلا غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرةً وأسفا وسواء كان نزولها فى (عقبة بن أبى معيط) أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم[1].

* عن سعيد بن المسيِّب عن أبيه قال: «لمّا حضرتْ أبا طالب الوفاةُ، جاءه رسولُ الله ﷺ، فوجد عندّه أبا جهلٍ وعبدَ الله بن أبى أُميَّةَ بن المُغيرة، فقال رسولُ الله ﷺ: «ياعمٍّ قُلْ لا إله إلا اللّهُ، كلمة أشهدُ لك بها عندَ الله»، فقال أبو جهلٍ وعبدُ الله بنُ أبى أُميَّة" يا أبا طالب أترغبُ عن ملَّة عبدالمطَّلب؟ فلم يزل رسولُ الله ﷺ يَعرضُهاَ عليه ويُعيدُ له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على ملَّة عبد المطَّلب، وأبى أن يقول: لاَ إلَه إلا اللّهُ، فقال رسولُ اللّه ﷺ: «أما واللّه لأستغفرَنَّ لك مالَم أُنهَ عنك». فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ **ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى مِّن بعد ما تبَّين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾، وأنزل اللّه تعالى فى أبى طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿ **إنك**

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٣٠).

لا تهـدى من أحـببت ولكن الله يهـدى من يشـاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾[١].

(٧) مخالفة الباطن للظاهر

فقد يكون العـبد ممن يُظهر الصلاح للناس فإذا خـلا بنفسه أطلق العنان لشهواته وملذاته وحارب الله بالذنوب والمعاصى.

قال تعالى: **﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾** (النساء: ١٠٨).

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تـكون لمن استقـام ظاهره وصلح باطنه، ومـا سُمع بهذا، ولا علم به - والحمد للـه - وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم. فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه[٢]

---

(١) أخرجه مسلم (٣) كتاب الإيمان.

(٢) يصطلمه : أي يستأصله عن دينه ويقطعه عنه.

الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيماً، ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه، . . . ويأخذ فى طريقه، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته، كإبليس الذى عبد الله فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه، . . . وبرصيصا العابد الذى قال الله فى حقه: ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ** ﴾ (الحشر : ١٦).

ويروى أن رجلاً علق بشخص وأحبه، فتمنَّع عنه واشتد نفاره فاشتد كلف البائس إلى أن لزم الفراش، فلم تزل الوسائط تمشى بينهما حتى وعد بأن (يعوده)، - أي يزوره -فأخبر بذلك ففرح واشتد فرحه وسروره، وانجلى عنه بعض ما كان يجده، فلما كان فى بعض الطريق رجع، وقال: والله لا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض بنفسى لمواقع التهم فأخبر بذلك البائس المسكين فسقط فى يده ورجع إلى أسوأ ما كان به وبدت علامات الموت وأماراته عليه.

قال الراوى: فسمعته يقول وهو فى تلك الحال :

سـلامٌ يا راحـة العليـل ... وبـرد ذل الدَّنـف[1] النحـيلِ
رضـاك أشـهى إلى فـؤادي ... من رحـمة الخالـق الجليـلِ

قال : فقلت له : يافلان، اتق الله تعالى فـقال : قد كان ما كان ... فقـمت عنه، فما جاوزت باب داره حـتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه. فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة[2].

(٨) تعلّق القلب بغير الله

قال تعـالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ (الرعد: ٢٨).

فحيـاة القلب فى تعلقه بالله (عز وجل) وشـقاء القلب فى إعراض صاحـبه عن الله (جل وعلا) فمن تعلق قلبـه بغير الله فهذا إيذان بسوء الخاتمة.

فيا من تعلق قلبه بالمال أهدى إليك هذه القصة

إنها قـصة الرجل الذى تعلّق قلبـه بحب المال حبّـا شديداً،

(١) الدنف : المرض الشديد الملازم لصاحبه.
(٢) الداء والدواء/ (ص : ٢٠٠).

وهذا الرجل كان من الإحساء وقد بلغ من الكبر عتيًّا، ليس له أحد، لا زوج ولا ولد ولا قريب، فانظر كيف صنع:

جمع ذهبه أمامه، وبجواره زيت، وهو يخاطب الذهب: ياحبيبى، يامن أفنيت فيك عمرى، أموت وأتركك لغيرى، لا والله، أنا أعلم أن موتى قريب، وأن مرضى خطير، ولكنى سأدفنك معى، ثم يأخذ دينار الذهب، ويغمسه فى الزيت ويهوى به إلى فمه ويبلعه، فإذا بلعه أصابته كحة شديدة يكاد أن يموت منها، ثم يأخذ نَفَسه ويرفع ديناراً ثانياً، ثم يغمسه فى الزيت ويهوى به فى فمه.. حتى مات من جرّاء ذلك»(١).

ويامن تعلَّق قلبه بالشهوات المحرمة أُهدى إليك هذه القصص

هاهم أربعة من الشباب، كانوا يعملون فى دائرة واحدة، مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم، فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها، وبينما هم فى ذات يوم جالسين إذا سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها، وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم

---

(١) من شريط قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من الدعاة.

هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التى حدّدوها. وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون، ومَرَّ عليهم أكثر من اسبوع فى تلك البلاد وهم بين زنا وخمور، وفعال لا تُرضى الرحمن، بينما هم فى ليلة من الليالى، وفى ساعة متأخرة من الليل، يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجور، نعم بينما هم فى غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشيًا عليه، فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم فى تلك الليلة الحمراء، يقول له: يا أخى، قل لا إله إلا الله، فيرد الشاب ـ عياذًا بالله ـ : إليك عنى. زدنى كأس الخمر وتعالى يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحال السيئة، نسأل الله ـ تعالى ـ السلامة والعافية.

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبكون، وخرجوا من المرقص تائبين، وجهزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده محمولاً فى تابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد ـ عياذًا بالله ـ.

❋ وهذه قصة معاصرة رواها الشيخ سعد البريك بارك الله فيه، وهى قصة شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى «بانكوك» للفسق والدعارة، بينما كان فى سكره وغيه ينتظر

خليلته، وقد تأخرت عليه ـ فما هى إلا لحظات حتى أقبلت عليه، فلما رآها خرَّ ساجدًا لها تعظيمًا، ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم

قال الإمام ابن القيم: وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تُعطَى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها، فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها وهواها مرضها، وشفاها مخالفته.

فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا البته، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣-١٤). مقصور عل نعيم الآخرةوجحيمها فقط، بل فى دورهم الثلاثة هم كذلك ـ أعنى دار الدنيا، ودار

البرزخ، ودار القــرار ـ فهؤلاء فى نعيم، وهؤلاء فى جــحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟

وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عــن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغيــر الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبــة ؟! وكل شىء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غــير الله عُذب به ثلاث مرات فى هذه الدار: فهــو يعذب به قبل حصــوله حتى يحصل، فــإذا حصل عُذب به حــال حصــوله بالخوف من سلبــه وفواته، والتنــغيص والتنكيــد عليه، وأنواع من العــذاب فى هذه المعارضــات، فإذا سُلبه اشتــد عليه عذابه، فهــذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار.

وأما فى البرزخ : فعــذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده، وألم فوات مــا فاته من النعيم العظيم باشتــغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحســرة التى تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوســهم نظير ما يعمل الهوام والديدان فى أبدانهم، بل عملها فى النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجــسادها، فحــينئذ ينتقــل العذاب إلى نوع هو

أدهى وأمر.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه وارتياحًا بحبه وطمأنينة بذكره ؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه: واطرباه، ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا الحال إنهم لفى عيش طيب، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها. ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيف، ويقول الآخر: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة(١).

(٩) سوء الظن بالله

قال ﷺ : «إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدى بى إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشر»(٢).

وقال ﷺ : «لايموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله»(٣).

---

(١) الداء والدواء/ (ص : ٩٩-١٠٠).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٠٩) صفة الجنة.

فمن أساء الظن بالله واعتقد أن الله لن يرزقه حُسن الخاتمة فإن الله لن يرزقه حُسن الخاتمة لأن سوء ظنه بالله (جل وعلا) هو الذى جعله من الخاسرين.

قال الإمام ابن القيم : إن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال الله تعالى : ﴿ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (الفتح : ٦) ...وقال الله تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (فصلت: ٢٣)[1].

فيجب على العبد أن يُحسن الظن دائمًا بالله (عز وجل)

(١) الداء والدواء/ (ص : ١٧١).

فالله أولى بكل جميل.

عن أنس أن النبى ﷺ دخل على شــاب وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك؟»، قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمّنه مما يخاف»[١].

(١٠) الإصرار على الذنوب والمعاصى

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومن عقوباتها (أى: الذنوب والمعاصى) أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحدٍ يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره فى معاشه ومعاده.

إلى أن قال: هذا وثَمَّ أمرٌ أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار، والإنتقال إلى الله، فربما تعذَّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله... فقال: آه آه لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال: شاه رخ[٢] غلبتك ثم قضى ـ أى مات ـ. وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال:

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦١) الزهد – وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٥١).
(٢) إسم لأحجار الشطرنج.

يا رُب قائلة يومًا وقد تعبت كيف الطريق إلى حَمَّام منجابِ

ثم قضى. . . وقيل لآخر: قل: لا إلـه إلا الله فجعل يهذى بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا حتى مات. . . وقيل لآخر ذلك فقال: ما ينفعنى ما تـقول ولم أدع معصية إلا ركبـتها ؟ ثم مات ولم يقلها. . . وقيل لآخر ذلك فقـال: ما يغنى عنى وما أعرف إنى صليت لله صلاة ؟ ولم يقلـها. . . وقيل لآخر ذلك فـقال: أنا كافـر بما تقول ولم يقلها وقـضى. . . وقيل لآخر ذلك فـقال: كلما أردت أن أقولها ولسانى يمسك عنها[1].

وقالت عـائشة (رضى الله عنهـا): كان النبى ﷺ يُكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قـلبى على طاعتك» فقلت : يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهـذا الدعاء فهل تخشى ؟ قال: «وما يؤمننى يا عـائشة وقلوب العـباد بين أصبـعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه»[2].

* (قال العلمـاء): وإذا كانت الهـداية إلى الله مصـروفة، والإستقامة على مشيئته موقـوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قُـربك، فـإن ذلك وإن كان من كـسـبك فـإنه من خلق ربك

(١) الداء والدواء/ (ص : ١٤٢-١٤٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي عاصم بإسناد صحيح.

وفضله الدار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك، كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سُلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم.

* (روى) النسائي « عن عثمان رضى الله عنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبَّد، فعلقت به امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها فطفقت الجارية كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضت إلى امرأة وضيئة - أى جميلة - عندها غلام، وباطية خمر، فقالت: إنى والله ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع علىَّ، أو تشرب من هذه الخمر كأسًا أو تقتل هذا الغلام (قال): قال: فاسقينى من هذا الخمر فسقته كأسًا قال: زيدينى، فلم يزل يشرب حتى وقع عليها وقتل الغلام. فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر، إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه»[1].

---

(١) التذكرة/ للقرطبي (١/ ١٠٨-١٠٩) ط. دار الصحابه.

قال الشيخ صدِّيق حسن خان: «فطول الإلف بالمعاصى يقتضى تذكرها عند الموت، وعودها فى القلب وتمثلها فيه، وميل النفس إليها وإن قبض روحه فى تلك الحالة يُختم له بالسوء.

عن عبد العزيز بن أبى رواد قال:

«حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشهادة لا إله إلا الله فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك قال: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: «اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته»[1].

شخصية كويتية دائمة السفر إلى بلاد جنوب شرق آسيا كل صيف وبالأخص إلى دولة «تايلاند» فقد كان صاحب القصة متزوجًا ولديه أطفال وعمره لم يناهز الثلاثين عامًا، إلا أنه مازال على عادته القديمة لا يفكر إلا فى شهوته وملذاته سواء كانت فى الحلال أم فى الحرام. لقد سافر من دولة الكويت وجهه أبيض من بياض البيض، وكله شباب وقوة، وفى إحدى الليالى الساهرة هناك تعرّف على راقصة عاهرة فرافقها فى إحدى الشقق، وكان بإنتظاره «ملك الموت»، فما إن قرب منها وجاءت اللحظة الحاسمة ... نادى المنادى: الرحيل ...

---

(١) جامع العلوم والحكم/ (ص: ١٧٣).

الرحـيل . . فقـبـضـه ملك الموت، ورجع إلى بلده مـحمـلاً بالتابوت، وفُتح التابـوت، وإذا بالمفاجأة الكبرى . . . وهى أن وجهه أصبح لونه أسود من سواد القار»[1].

وهذه قصة ثلاثة من الأصدقـاء يجمع بينهم الطيش والعبس والمجـون، كانوا يسـتـدرجون الفـتـيات السـاذجـات بالكلام المعسول، ثم ينقلبون إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن.

يقـول الراوى: ذهبنا كـالمعتـاد للمـزرعة، وكـان كل شىء جاهزًا، . . . الفريسة لكل واحـد منَّا، الشراب الملعون، شىء واحـد نسيـناه، وهو الطعام، وبـعد قليل ذهب أحـدنا لشـراء العشاء بسيـارته، وكانت الساعة السادسة تقـريبًا عندما انطلق، ومرت الساعـات دون أن يعود، وفى العاشرة شـعرت بالقلق، فـانطلقت بسـيارتـى أبحث عنه، وفى الطريق شـاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانب الطريق.

وعندمـا وصلت فـوجـئت بأنها سـيـارة صـديقى، والنار تلتهمـها، وهى مقلوبة على أحـد جانبيها، أسـرعت كالمجنون أحاول إخـراجه من السيـارة المشتعلة، وذهلت عندمـا وجدت نصف جسده قد تفحم تمامًا، لكنه كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينه وأخذ يهذى: النار

---

(١) الوقت عمار أو دمار/ جاسم محمد المطوع (٢/ ٨٧).

. . النار فقررت أن أحمله بسيارتى وأسرع به إلى المستشفى ولكنه قال بصوت باك: لا فائدة، لن أصل فخنقتنى الدموع، وأنا أرى صديقى يموت أمامى.

وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له ؟ نظرت إليه بدهشة وسألته من هو ؟ قال بصوت كأنه قادم من بئرٍ عميق : الله.

أحسست بالرعب يجتاح جسدى، وفجأة أطلق صديقى صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه[١].

(١١) نسيان الآخرة وعدم ذكر الموت

إن الذى ينسى الموت ولا يذكره يُعاقَب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة.

فمن لم يذكر الموت لن يستعد له أبداً ولذلك تجده غافلاً عن طاعة الله لأن الموت لا يخطر له على بال . . . أما الذى يذكر الموت فإنه يسارع إلى طاعة الله (عز وجل) وكأنه يموت بعد ساعة فلا تكاد تمر لحظة من حياته إلا وهو ذاكرٌ لله.

دخل الحسن البصرى على مريض يعوده فوجده فى سكرات الموت فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به فرجع إلى أهله بغير اللون الذى خرج به من عندهم فقالوا له: الطعام يرحمك الله

(١) «أخي الشاب إلى أين تسير ؟» / محمد أمين مرزا (ص : ١٠-١٢).

فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم فو الله لقد رأيت مصرعاً لا أزل أعمل له حتى ألقاه.

أخي الحبيب: إن من جعل الموت نُصب عينيه بادر بالأعمال الصالحة حتى إذا وافته المنية مات على طاعة الله.

(١٢) الظلم

فإن الظالم إن لم يتحلل من تلك المظالم- بأن يرد إلى كل واحد مظلمته- فإن الله لا يوفقه أبداً إلى حُسن الخاتمة بل هو أقربُ ما يكون لسوء الخاتمة لأن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافراً فلو أن مسلماً ظلم أى إنسان فقام ودعا عليه بأن يُختم له بسوء الخاتمة لاستجاب الله دعاءه.

قال ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته. وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»[(١)].

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمل على الغمام يقول الله: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والضياء عن خزيمة بن ثابت - صحيح الجامع (١١٧).

وقال ﷺ : «اتقوا دعوة المظلوم وإن كـان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب»[١].

وقال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلتــه» ثم قرأ : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (هود : ١٠٢)[٢].

وقال ﷺ : «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحـرم عليه الجنة» فـقال رجل: وإن كـان شيـئاً يسيراً يا رسول الله ؟ فقال : «وإن قضيباً من أراك»[٣].

وقال ﷺ : «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متـاع. فقال: «إن المفلس مـن أمتى من يأتى يوم القيـامة بصـلاة وصيام وزكـاة، ويأتى وقد شـتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسـفك دم هذا، وضرب هذا، فـيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فـإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليـه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار»[٤].

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلي والضياء عن أنس - صحيح الجامع (١١٩).
(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٦٨٦) - ومسلم (٢٥٨٣).
(٣) أخرجه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر.

وأخيراً: أخى الحبيب ... أختى الفاضلة:

كانت هذة بعض أسباب سوء الخاتمة فمن أراد النجاة فليحذر من الوقوع فيها كل الحذر فإن الدنيا لا تستحق أبداً أن نضحِّى بالآخرة من أجلها . . . فالدنيا مهما طالت فهى قصيرة ومهما عَظُمت فهى حقيرة لأن الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ولأن العمر مهما طال فلابد من دخول القبر.

أسأل الله (جل وعلا) أن يرزقنى وإياكم حُسن الخاتمة وأن يجمعنا جميعاً فى جنته ومستقر رحمته إخواناً على سُرر متقابلين.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه
محمود المصرى
(أبو عمار)

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة